عدو الشعب الجاشنكير

للاستاذ عطية الشيخ

— ٢ —

صرخة الشعب :

ما أحسن قول شوقي في رواية كليوبترا :

انظر الشعب ديوان كيف يوحون إليـــه
أثر البهتـــان فيه وانطلى الزور عليـه
ياله من بيضاء عقله في أذنيـه

وما أحقر عقل الجماهير ومنطقهـا ، وما أكثر ما ترى شعبا من الشعوب ، لمجرد فرية مزورة يعادي حبيبه ، ويحب عـدوه وينصر خاذله ، ويخذل ناصره ، ويصدق المحال ، ويستبعد الحق . وصدق من قال إن الشعوب تقاد من عاطفتها لا من تفكيرها ، وهكذا استطاع بعض البطانة أن يثير الشعب على بيبرس ومن معه . ولعل الشعب عطف على السلطان بغريزة مناصرة الرئيس على المرءوس ، والأب على الابن ، أو لصغر سـن السلطان ، واستنجاده بهم ، فتحركت فيهم النخوة التي تحمي من استجار . وأيا كان سبب ذلك فسأنقل الرواية التاريخية بلفظها ليعرف القارىء الكريم كيف كانت الأمة مصدر السلطة في ذلك العصر :

« لما رأى العامة أن الملك الناصر قد وقف بالرفرف من القلعة ، وجنود بيبرس وسلار تحاصره ، حنقوا وصرخوا ، وحملوا يدا واحدة على الأمراء ، وهم يقولون : يا ناصر يا منصور ، الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون ، فأرسل بيبرس عدة مماليك لينحوا العامة ويفرقوهم ، فاشـتد صياحهم ، وهجموا عليهم ، وأغشوا في حقهم ، فخشي قائدهم من تكاثر العامـة ، وأخذ يلاطفهم ، وقال لهم : طيبوا خاطركم فإن السلطان قد طاب خاطره على أمرائه ، وما زال يحلف لهم حتى تفرقوا ، وعاد قائد السرية إلى بيبرس وعرفه شـدة تعصب العامة للسلطان ، فلم يسعه هو ومن معه إلا استعطافه ، فأرسـلوا إليه يقولون إنهم مماليـكه وفي طاعته ولا يريدون إلا إخراج الشباب الذين يوقعون بينه وبينهم ، فرضي السلطان بإخراج زعماء الدس إلى الشام ، ودخل الأمراء عليه وقبلوا يده فخلع عليهم وركب معهم وطاف بالقاهرة لتطمئن قلوب العامة » .

لم يحمر الرساسودم الخبيث :

عادت المياه إلى مجاريها ، وحمد كل الله على ما أنتهت إليه الفتنة ، ولـكن بطانة السـوء لم تحمد الله على ذلك ، فما زال بيبرس أمينا على خزانة الدولة ، وسلار مصرفا لشئونها وهم محرومون من شهوة المال ، وشهوة الحـكم ، فوجدوا في اخراج زعماء الفتنـة مادة جديدة لإشـعال أحقاد الملك على بيبرس ، وأخذوا يتباكون على استبداد الأمير بيبرس بملـكه حتى يجره على نفي بعض خاصته ، وعلى تحكمه في مآكل الملك وملبسه ومشربه وشهوة نفسه ، حتى كان الملك يبيت « في قلق زائد وكرب عظيم لإخراج مماليـكه إلى القدس ... وقد ضاق صدره ، وصار في غاية الحصر من تحكم بيبرس وسلار عليه ، وعدم تصرفه في الدولة كما يريد ، حتى إنه لا يصل إلى ما تشتهي نفسه من المأكل لقـلة المرتب له ! فلولا ما كان يتحصل له من أملاكه وأوقاف أبيه ما وجد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه » .

الى الصيد :

بلغ الضيق منتهاه بالسلطان ، وكاد يختنق هما وغما فخرج في سنة ٧٠٨هـ من القلعة ، وجاز النيل إلى البر الغربي ، وأقام حول الأهرام بتصيد عشرين يوما ، وهناك دبرت مؤامرة ثالثة خلاصتها أن يظهر الملك رغبته في الحج مع عياله ثم يهرب إلى قلعة الكرك ، وفي هذه الجهة النائية تعد قوات ثورة تلتهم بيبرس وسلار ومن معهما ، ومهد لذلك بارسال خطاب مزور باسم سـلار وبيبرس إلى قائد قلعة الكرك ليسلمها للملك عند حضوره .

صيحة صرور :

أعلن الملك رغبته في الحج مع عياله ، وشرع الأمراء في تقديم الهدايا على العادة ، من الخيل والإبل ، والتزم عرب الشرقية

بالشعير اللازم للدواب. وفى ٢٥ رمضان نزل السلطان من القلعة وحوله جميع الأمراء ، وكانت البطانة لا تألو جهدا فى استغلال الشعب ضد بيبرس ، مخترعين القصص مفترين الأباطيل عما يضايق بيبرس ملكه ، حتى اعتبر الشعب نفسه مسئولا عن إنقاذ الملك وحمايته من هـذا الأمير المستبد القاسى ، وأراد الشعب أن يعلن فى توديعه الملك إلى الحجاز مقدار حبه له واستعداده للتضحية بكل شىء فى سبيله « فخرج العامة حوله وحاولوا بينه وبين الأمراء وهم يتباكون ويتأسفون على فراقه ويدعون له بتحميد العودة » حتى وصل إلى بركة الحاج ، فعاد المودعون جميعا من العامة والأمراء ، وبيبرس وسلار يتعجبان مما سمعا من العامة ولا يعلمان أن الدس مستمر من البطانة للشعب .

الى الكرك :

بعث السلطان أهله إلى العقبة ، وظل هو مدة يتصيد بالصالحية ثم سار فى طريقه إلى الحجاز . ولما صار فى أقرب نقطة إلى الكرك عرج عليها ، وأرسل من استدعى أهله من العقبة ، وأمر بإخراج كل من فى ناحية الكرك من الأهالى ، وبعث بقائد القلعة وحاميتها إلى مصر ليخبر بيبرس أنه قد ثنى عزمه عن الحج واختار الإقامة بالقلعة ، ورد معه كل الهدايا التى أهداها إليه الأمراء بمناسبة حجه ، وأخذ الأمراء المصاحبون له فى الحج يبكون ويحاولون إرجاعه عن عزمه فلم يفلحوا ، فعاد الجميع إلى مصر محزونين . ولما لام بيبرس نائب القلعة على تسليمها للملك أطلعه على الخطاب المحرر باسمه واسم سلار ، وبالبحث ظهر أنه مزور ، دسه عليهما الطنبغا الكاتب ، بتحريض من بطانة السلطان .

هرب القلم :

طلب الناصر علاء الدين بن الأثير الكاتب وأمره أن يكتب لبيبرس وسلار وأمراء مصر الكتاب الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم : حرس الله الجنابين العاليين الكبيرين الفازيين المجاهدين ، ونقمهما الله تعالى توفيق العارفين ، أما بعد فقد اطلعت إلى قلعة الكرك وهى من بعض قلاعى وملكى ، وقد عولت على الإقامة فيها ، فإن كنتم مماليكى ومماليك أبى ، فأطيعوا نائبى ولا تخالفوه فى أمر من الأمور ، ولا تعملوا شيئا حتى تشاورونى ، فأنا ما أريد لكم إلا الخير ، وأنا ما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لى ، وأقل كلفة ، وإن كنتم ما تسمعون منى فأنا متوكل على الله والسلام » وصل الكتاب فاجتمع الأمراء بدار بيبرس ، وقد طار صوابهم لهذه الألاعيب ، وكتبوا إلى الملك بعد التشاور الجواب الآتى :

« ما علمنا ما عولت عليه ، وطلوعك إلى قلعة الكرك وإخراج أهلها ، وتشييعك نائبها ، وهذا أمل بعيد . فخل عنك شغل الصبى ، وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم ، فيا ليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك وما عولت عليه ، غير أن لكل ملك انصرام ، ولا تقضاء الدولة أحكام ، ولحلول الأقدار سهام ، ولأجل هـذا أمرك غيـك بالتطويل ، وحسن لك زخرف الأقاويل . فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك مماليكك ، وإلا تعلم أنا ما نخليك فى الكرك ، ويخرج الملك من يدك والسلام » .

تنازل مصطنع :

لما قرىء الكتاب على الناصر تبسم وقال : لا إله إلا الله كيف أظهروا ما فى صدورهم ! ثم أمر بإحضار آلة الملك مثل العصائب والكوسات والمحجن وكل ما كان عنده من شارات الملك وسلمها للرسول ، وقال له : قل لهم ما أخذت لكم شيئا من بيت المال ، حتى الهدايا أرجعتها إليكم ، وإن أعمل سلطانا ، فدعونى فى هذه القلعة ، منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى اما بالموت وإما بغيره . وسلم كتابا بالتنازل عن السلطنة ، وعاد الرسول إلى مصر ودفع الكتاب لبيبرس وسلار وسلمهما شارة الملك ، « فلما قرآ الكتاب قالا : لو كان هذا الصبى يجىء ما بقى يفلح ، ولا يصلح للسلطنة ، ولا نأمن غدره » .

تشاور وبيعة :

اجتمع بيبرس وسلار وسائر الأمراء بدار النيابة بالقلعة ، واستدعوا الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة ، وقرىء كتاب الناصر ، وشهد الأمراء الذين عادوا من صحبته بتنازله عن العرش

فأثبت ذلك ، وبحثوا فيمن يصلح للسلطنة بعده، واختلفوا بين سلار وبيبرس فأنهى سلار الخلاف بأن قام وبايع ببيرس، فقبلها الأخير مكرها ، وجلس على تخت الملك وهو يبكي بحيث يراه الناس ، واشترط لقبوله الملك أن يبقى سلار نائب السلطنة ، فقام الأمراء إليه حتى قبلها ولبس خلعة النيابة .

حرب السماء :

كأن من شيم الأيام عداوة الكرام ، وكأن الزمان حليف الأخس ، وكأن وظائف الرياسة ملعونة منحوسة لا يسعد فيها إلا كل ملعون نحس ، فطالما رأينا عوامل الطبيعة تتضافر مع لئام الناس في حرب الكرام ، وقلما رأينا الحق في صراعه مع الباطل إلا مهزوما ، وكلما صنع اللئيم سنانا لحرب الكريم أنبت الزمان قناة لسنانه ، ولولا هذه الشاهدات ، ما آمن الناس بآخرة تنصف المظلوم من الظالم ، وتعوض الفاضل من المفضول ، وما آمن ابن العاص حتى فكر فوجد العرب أقوم أخلاقا من العجم ، والعجم أسعد دنيا من العرب ، فقال لابد من آخرة تقيم هذا العوج . أقول هذا لأن بيبرس المستقيم المخلص العفيف النزيه ، ما كاد يجلس على العرش حتى بدأ سوء الطالع يلازمه ، فقد فشت في البلاد أمراض حادة ، وعم الوباء الخلائق ، وعز الدواء ، وامتنع كل ما يحتاج إليه المرضى ، ثم تأخر فيضان النيل إلى شهر مسرى ، فارتفع سعر القمح وعم الغلاء جميع السلع ، ولم يزد النيل في هذه السنة عن ست عشرة ذراعا فشرقت أرض كثيرة وتوقع الناس مجاعة قاسية ، ودبت عقارب السعاية بين الشعب مستغلة الظرف « فتشاءم الناس بطلعة الملك المظفر بيبرس » وصنع العوام أغنية صاروا يتغنون بها وهي :

سلطاننا ركين ونائبنا دقين يجينا الماء من أين

يجيبوا لنا الأعرج يجي المساء ويدحرج

يقصدون بركين وكن الدين بيبرس ، وبدقين سلار لأنه كان مغولبا أجرد في حنكه بعض الشعرات ، وبالأعرج الملك الناصر لأنه كان كذلك . وقد أخذ بعض المحبين للملك يضربون من يغني هذه الأغنية ، فكانوا كالدية الخلصة لصاحبها ، رضي الله عنها ، إذ سببوا ازدياد الكراهة من الشعب للملك ، وولوعه بهذه الأغنية حتى كانوا يغنونها تحت سور القلعة ، فوضعت الوحشة بين المظفر وبين عامة الشعب .

أمراء الشام :

تزعم حركة الولاء للناصر ، وعدم الاعتراف بسلطنة الجاشنكير ، ثلاثة من كبار أمراء الشام . هم قراسنقر نائب حلب ، وقبجق نائب حماة، واستدمر نائب طرابلس ، وكان أكبرهم وزعيمهم قراسنقر ، أما الأفرم نائب دمشق ، فكان أخلص الناس للجاشنكير إذ كان جركسيا مثله لذلك بايع الأفرم وأرسل إلى الثلاثة السالفين ؛ فأما قراسنقر فقال لرسول الأفرم : إيش الحاجة لمشاورتنا بعد أن حلف أستاذك وبايع وكان الأولى أن يتأنى ، وأما قبجق فقال للرسول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إيش جرى على ابن أستاذنا حتى عزل نفسه ! والله لقد دبرتم أنحس تدبير ، اذهب إلى استاذك وقل له الآن بلغت مرادك ، وسوف تبصر من يصبح ندمان وفي أمره حيران . وأما أستدمر فقال للرسول : اذهب إلى استاذك وقل له يا بعيد الذهن وقليل العلم ، بعد أن دبرت أمرا ما الحاجة إلى مشاورتنا ؟ فوالله ليكونن عليك أشأم التدبير وسيعود وباله عليك . ثم اجتمع هؤلاء العصاة الثلاثة واتفقوا على العمل سرا مع الناصر لإعادته إلى الملك وخلع بيبرس وألا يقطع واحد منهم في رأي إلا بمشورة أصحابه .

يتبع

عطية الشيخ

مفتش المعارف بالمنيا

نشر بالعـــدد ٨٧١ بالاعلان ٤٣٩٥ — مناقصـــة الأعمال الاعتيادية والتجـارية اللازمه والمطلوب : مناقصـة الأعمال الأعتيادية والتجارة اللازمة —